هذه صفحات من هذا الكتاب المبتكر

مواعظ

الإمام الحارث المحاسبي

وقد استئذناه - حفظه الله - في

تصوير "بعض" صفحات كتبه فأذن جزاه الله خيراً

تصوير

marthad.wordpress.com

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

نشر على موقع الألوكة

مواعظ

الإمام الحارث المحاسبي

(ت ٢٤٣ هـ)

بسم الله الرحمن الرحيم

معالم في التربية والدعوة

مواعظ
الإمام الحارث المحاسبي
(ت ٢٤٣ هـ)

قام بجمعها
صالح أحمد الشامي

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

المكتب الإسلامي
بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠(٠٥)
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم، على سيدنا محمد النبي الأمي، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد :

فقد ضرب الله مثلاً للكلمة الطيبة: شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

والعيش في ظلال هذا الفرع أمر جميل، تسعد فيه النفس، وتسمو فيه الروح، وتطرب له الأذن، ويجد فيه العقل متعته.

وسعياً في تفيؤ هذه الظلال، كانت فكرة جمع هذه المواعظ، التي هي خلاصة تجارب، ونتاج أعمار، قدمها لنا أعلام هذه الأمة على مرور الأيام.

وقد كنا في العقد الأول من هذه السلسلة «معالم

في التربية والدعوة» مع علماء القرن الثاني رحمهم الله.

أما العقد الثاني من هذه المعالم فسيكون مع أعلام هذه الأمة ممن عاش في القرن الثالث وما بعده.

وأول من نبدأ بتقديم مواعظه، الإمام أبو عبد الله الحارث المحاسبي، رحمه الله.

هذا، ونرجو الله عز وجل أن ينفعنا بما نسمع، ويوفقنا للعمل الصالح، ويجعلنا في عداد عباده المقبولين، إنّه سميع مجيب.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

غرة جمادى الأولى سنة ١٤٢٠هـ

١٩٩٩/٨/١٢

كتبه

صالح أحمد الشامي

الحارث المحاسبي

هو أبو عبد الله، الحارث بن أسد المحاسبي.

ولد في البصرة في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري.

ونشأ في بيت علم وثراء، فقد كان أبوه كثير الأموال، كما كان من أهل العلم، إلا أنه كان قدري المذهب، فلم يكن على طريقة أهل السنة.

وانتقل الأب بأسرته إلى بغداد، وفيهم الحارث، وهناك أتيح للابن أن يتنقل بين المدارس وحلقات العلم.. ليختار طريق أهل السنة، معارضاً لوالده.

وهكذا بدأت شخصية الحارث تظهر قوية، متمسكة بالحق، لا تؤثر على الحق أحداً، حتى ولو كان أباه.

وقد كان على يقين من انحراف أبيه، إلى الحد الذي جعله يمتنع عن أخذ نصيبه من الميراث الذي تركه، على الرغم من شدة حاجته.

قال الجنيد: مات أبو الحارث المحاسبي، وإن الحارث لمحتاج إلى دانق فضة، وخلف أبوه مالاً كثيراً، وما أخذ منه حبة واحدة، وقال: أهل ملتين لا يتوارثان، وكان أبوه واقفياً[1].

كان ذا ثقافة واسعة وعلم جم، فقد كان فقيهاً محدثاً متكلماً.. واعظاً.

خلف مؤلفات كثيرة، معظمها في الزهد والسلوك والتربية والرقائق.. وكثير منها في أصول الدين والرد على المعتزلة والرافضة والقدرية وغيرهم.

عني عناية خاصة بأمور تزكية النفس وطهارتها، حتى ليكاد هذا الجانب يستأثر باهتماماته كلها..

وقد بلغ شوطاً بعيداً في الدخول إلى أعماق النفس الإنسانية وتحليلها، والوقوف على خباياها وخفاياها، يشخص أمراضها بدقة متناهية، ويصف لها العلاج الناجع.

وهو إنما عرف بالمحاسبي، لكثرة محاسبته لنفسه.

كانت وفاته ببغداد سنة ثلاث وأربعين ومائتين من الهجرة، رحمه الله تعالى.

(١) تهذيب حلية الأولياء ٣/ ٢٧٢.

شهادات

ولإعطاء تصور أوسع عن مكانة المحاسبي، يحسن بنا أن نقف على بعض الشهادات التي أدلى بها بعض علماء الأمة بحقه، ممن عاصره أو ممن جاء بعده:

قال الإمام الذهبي:

«المحاسبي، الزاهد العارف، صاحب التصانيف الزهدية»[1].

وقال الإمام الغزالي:

«المحاسبي حبر الأمة في علم المعاملة، وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس، وآفات الأعمال، وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه»[2].

وقال العلامة التميمي، فيما نقله عنه العلامة المناوي:

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/ ١١٠.
(٢) إحياء علوم الدين ٣/ ٢٦٤.

«المحاسبي، هو إمام المسلمين في الفقه والتصوف والحديث، والكلام»[1].

وقال الحافظ أبو نعيم صاحب الحلية:

«المشاهد المراقبي، والمساعد المصاحبي، أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي. كان لألوان الحق مشاهداً ومراقباً، ولآثار الرسول ﷺ مساعداً ومصاحباً، كان في علم الأصول راسخاً وراجحاً، وعن الخوض في الفضول جافياً وجانحاً، وللمخالفين الزائغين قامعاً..»[2].

وقال صاحب شذرات الذهب:

«الزاهد الناطق بالحكمة، الحارث بن أسد المحاسبي، صاحب المصنفات في التصوف والأحوال. قال ابن الأهدل: كان أحد الخمسة الجامعين بين العلمين. وله مصنفات نفيسة في السلوك والأصول، وهو أحد شيوخ الجنيد»[3].

---

(١) الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية ١/٢١٨.

(٢) تهذيب حلية الأولياء ٣/ ٢٧١.

(٣) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي في تراجم سنة (٢٤٣هـ).

وقال صاحب «الأعلام»:

«المحاسبي من أكابر الصوفية، كان عالماً بالأصول والمعاملات، واعظاً مبكياً»[1].

وقال الإمام ابن تيمية:

«كان له من العلم والفضل والزهد والكلام في الحقائق ما هو مشهور»[2].

أكتفي بهذه الشهادات.. وغيرها كثير.

---

(١) الأعلام للزركلي في ترجمته.

(٢) الفتاوى ٦/ ٥٢١.

محاور الوعظ عند المحاسبي

عاش المحاسبي في عاصمة الخلافة العباسية بغداد، حيث طغت الحياة المادية على كل مظاهر العيش بتأثير سلوك قصور الخلافة التي جعلت من بيت مال المسلمين وسيلة لترف السلطة، وتبديد الأموال كما تريد.

وفي هذه القصور ـ وفي زمن المأمون خاصة ـ مورست أكبر عملية إرهاب فكري والذي عرف فيما بعد بـ«فتنة خلق القرآن» حيث أجبر الناس على القول بذلك، وقتل في سبيل ذلك علماء، وعذب آخرون، وكان الإمام أحمد قد وقف في وجه هذا الأمر حتى فرج الله عن الأمة بثباته في وجه الفتنة..

وفي بغداد كان ثقل فرقة المعتزلة في ظل الخليفة، وكانت الفرق الأخرى من رافضة وقدرية وغيرهم يسرحون ويرتعون.

يضاف إلى ذلك ظهور انحراف العباد، وخروجهم على حدود الشريعة..

كل هذه العوامل كان لها أثرها الكبير في مواعظ المحاسبي، إذ إنما كان يعالج بها هذه الانحرافات، ويصحح المفاهيم، ويبين عوار تلك الفرق التي خرجت على مذهب أهل السنة والجماعة بفكرها. كما يبين خطر العباد المنحرفين بسلوكهم ومعتقداتهم أيضاً..

ونستطيع إجمال أهم الأمور التي سيطرت على مواعظ المحاسبي بالنقاط التالية:

١ ـ التزام الكتاب والسنة:

إن الدعوة إلى الالتزام بالكتاب والسنة هي الوسيلة الوحيدة للوقوف في وجه كل الانحرافات التي تشيعها الفرق الضالة من فكر وسلوك.

ولذا كان تأكيد المحاسبي على ذلك شديداً، ومتكرراً في كل مناسبة ومع كل موعظة، ومن ذلك قوله: «من شرح الله صدره، ووصل التصديق إلى قلبه، ورغب في الوسيلة إليه، لزم منهاج ذوي الألباب، برعاية حدود الشريعة: من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ وما اجتمع عليه المهتدون من الأئمة».

ويوجه كل مسلم إلى أن يكون مرجعه الكتاب والسنة فيقول:

«كل أمر لاح لك ضوؤه بمنهاج الحق، فاعرضه على الكتاب والسنة والآداب الصالحة».

٢ ـ التزام طريق السلف:

يقول في ذلك: «أعون الأمور لك على التقوى لزوم طريق أصحاب محمد ﷺ، وإياك والمحدثات من الأمور.. وإنك إن أخذت طريقهم فقد أخذت بغاية الصدق.. فلا تخالفهم في شيء من الأشياء، فإنهم كانوا على الحق المبين..».

ويقول: «قم يا أخي بفرائض الله، والزم شرائعه، ووافق سنة نبيه ﷺ، واتبع آثار أصحاب نبيه، والزم سيرتهم، وتأدب بآدابهم، واسلك طريقهم، واهتد بهداهم..».

٣ ـ العلماء:

يرى المحاسبي أن صلاح الأمة وفسادها، بصلاح العلماء وفسادهم، ويتحدث عن فريقين من العلماء: فريق تسعد بهم الأمة، وفريق آخر رضوا بالدنيا عوضاً عن الآخرة، ثم يفصل القول في هذا الفريق الثاني ليحذره الناس ويبتعدوا عنه، فهم خلفاء الشيطان، ودعاة إبليس.

٤ ـ بيان انحراف بعض المتصوفة:

يحذر المحاسبي تحذيراً شديداً من هذا الفريق من الناس، صاحب الدعاوى العريضة، ويبين أن العبادة مهما بلغت لا تتيح لصاحبها معرفة الغيب أو الاطلاع عليه.

وكل من ادعى أنه يعرج به، أو يذهب إلى مكة في ليلة، أو يكلم الرب تعالى.. فهو كذاب ضال مضل.. والعبادة لا تسقط عن المسلم حتى الموت، والجوع ليس منزلة يسعى إليها، ويحذر من أصحاب هذا المسلك فيقول: «احذر هذا الباب، واحذر أهله، ومن إلى هذا الأمر، والزم الأمر الأول ما كان عليه محمد ﷺ..».

٥ ـ معالجة الأصول:

ويرى في سبيل الإصلاح؛ أن ينصب الاهتمام على معالجة الأصول، فإذا صلحت صلحت الفروع، فالعز يقابله التواضع.

ويتفرع عن العز: حب الرياسة والجاه عند الناس، والكبر والفخر، والغضب والحسد، والحقد والعصبية والحمية.

فإذا عالجت من نفسك داء العز، فقد عالجت كل تلك الفروع، أما إذا عالجت أمر الغضب أو الفخر من نفسك فإنك لن تقضي على أصل الداء.

ويوضح هذا فيقول: «وما دام العبد يشتغل بالفرع عن الأصل، فليس لشغله فناء، ما دام الأصل ثابتاً، كلما ذهب فرع أخلف فرعاً آخر بدله».

٦ ـ محاسبة النفس:

هذه القضية تكاد تسيطر على معظم مواعظ المحاسبي، وإنما سمي المحاسبي لكثرة محاسبته نفسه.

ولست بحاجة على سوق الأمثلة على ذلك، فمعظم ما جاء في هذا الكتاب أمثلة عليه.

ولكن مما ينبغي الإشارة إليه: أن المحاسبي وضع قواعد لهذه المحاسبة، وأرشد إلى تأملها والاستفادة منها، وأضرب مثالاً واحدً على ذلك:

إن الانزلاق لا يحدث دفعة واحدة، وإنما يبدأ بالأمر اليسير ثم ينتقل إلى ما هو أكبر.. حتى يصل الإنسان إلى القعر.

وفي سبيل تفادي ذلك، لا بد من محاسبة نفسه على الأمر الصغير.

يقول في ذلك:

«إن العبد إنما يؤتى من قبل التهاون باليسير، وهو الذي يوقع في الإثم الكبير، والتهاون باليسير هو الأساس الذي يبنى عليه الكثير.

فيكون أوله: كان تحفظاً، ثم صار انبساطاً، ثم صار من الانبساط إلى ذكر اليسير، ثم صار من اليسير إلى ما هو أكبر منه.. فلا تشعر حتى ترى نفسك حيث كنت تكره أن ترى فيه غيرك.. ففي ترك اليسير، ترك اليسير والكثير».

وهكذا لم تعد الموعظة مجرد إيقاظ للحس والشعور بالخطر، بل هي بيان لسبيل النجاة.

٧ ـ أمر النية:

وهذا جانب آخر يأخذ مساحة واسعة من مواعظ المحاسبي، فالنية هي التي تحدد مسار العمل وقيمته عند الله، ودرجة الإخلاص فيه، وتصفيته من الشوائب، ولا شك بأن قضية «النية» تستحق هذا القدر من الاهتمام والرعاية، لقوله ﷺ في الحديث المتفق عليه: «إنما الأعمال بالنيات».

ويرى المحاسبي أن من المساعدات على تحرير النية والتأكد من سلامتها طرح الأسئلة التالية على النفس: «لمَ عملت؟ لمَ لمْ أعمل؟ ولمَ لا أعمل..؟»

ويقول: «افحص النية، واعرف الإرادة، فإن المجازاة بالنية».

٨ ـ الطهارة:

الطهارة شرط في صحة العبادة، ولذا فهي تسبق الصلاة، وكذلك هنا في أمر النفس، فالطهارة تسبق العمل.

فالإنسان لا بد أن يخلي من نفسه خلقاً سيئاً، ليقوم مقامه خلق حسن.

يقول المحاسبي: «فلا تزال كذلك في البحث عن مساوئ نفسك، كلما ظهر لك خلق سيء، نفاه خلق حسن، حتى تورث بذلك الطهارة».

وفي ظل هذا المعنى حرص المحاسبي على التحذير من معاصي القلوب، والحض على التقرب إلى الله بطاعات القلوب، في كلام مطول مفصل.

بل يرى المحاسبي أن التطهير أولى من العمل،

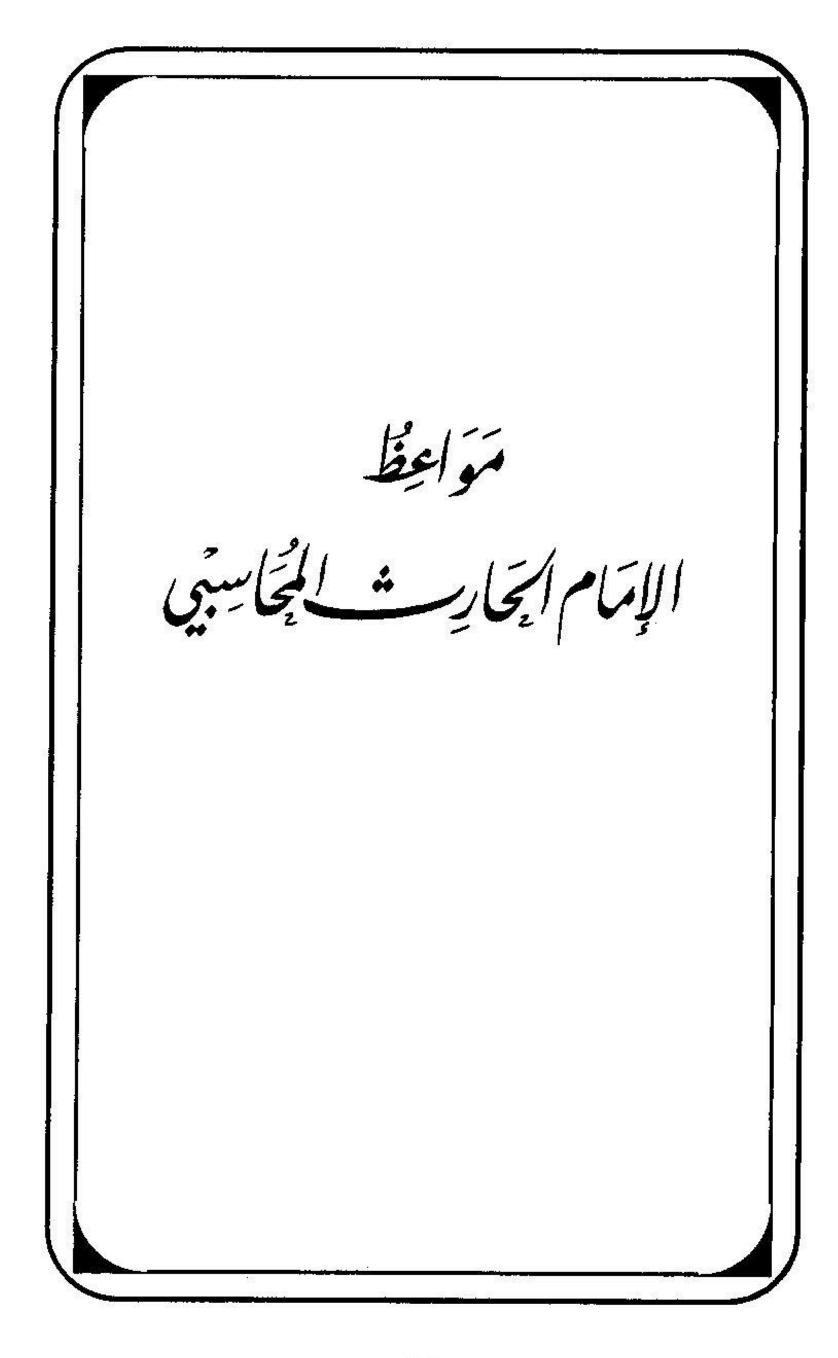
لأن من لم يتطهر قبل العمل، فإن الشر يمنع من منفعة الخير، فترك الشر أولى بالعبد.

٩ ـ العقيدة الصحيحة:

ليست الموعظة عند المحاسبي ـ وكذلك عند أئمة السلف ـ هي ترغيب في الفضائل، وترهيب من الآثام، بل هي أيضاً وسيلة لبيان العقيدة الصحيحة، والتوجيه إليها، وبيان الانحرافات في هذا الباب ليحذرها المسلم.

وفي ثنايا المواعظ كثيراً ما ورد بيان دقائق التوحيد التي لا ينتبه إليها كثير من الناس.

أكتفي بهذا القدر في بيان محاور الوعظ عند المحاسبي، وغيرها كثير، فهو إنما كان يلقي بالموعظة معاجلة لأمر رآه، أو لأمر سئل عنه، فهو في هذا إنما يعالج واقع الناس في شتى ميادين الحياة.



مَوَاعِظُ

الإِمَامِ الحَارِثِ المُحَاسِبِيّ

التزام الكتاب والسنة

قال أبو عبد الله:

من شرح الله صدره، ووصل التصديق إلى قلبه، ورغب في الوسيلة إليه، لزم منهاج ذوي الألباب، برعاية حدود الشريعة، من كتاب الله تعالى، وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، وما اجتمع عليه المهتدون من الأئمة[1].

العمل بكتاب الله تعالى

قال أبو عبد الله:

اعلم أن فريضة كتاب الله:

العمل بحكمه من الأمر والنهي.

والخوف والرجاء لوعده ووعيده.

والإيمان بمتشابهه.

---

(١) رسالة المسترشدين ص(٣٦)، للحارث المحاسبي، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، ط٢.

والاعتبار بقصصه وأمثاله.

فإذا أتيت بذلك، فقد خرجت من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن عذاب الشك إلى رَوْح اليقين[1]، قال الله جل ذكره: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[2].

وإنما يميز ذلك ويرغب فيه أهل العقل[3] عن الله، الذين عملوا في إحكام الظاهر، وتنزهوا عن الشبه[4].

تحرير النية

قال أبو عبد الله:

افحص عن النية، واعرف الإرادة، فإن المجازاة بالنية، قال رسول الله ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى)[5][6].

---

(١) الرَّوح ـ بفتح الراء ـ: الراحة.

(٢) سورة البقرة، الآية (٢٥٧).

(٣) أهل العقل: أهل الفهم.

(٤) رسالة المسترشدين ص(٣٨).

(٥) متفق عليه.

(٦) رسالة المسترشدين ص(٤٥).

حسن الاستماع

قال أبو عبد الله:

إني أحثك على حسن الاستماع، لتدرك به الفهم عن الله عز وجل في كل ما دعاك إليه.

فمن استمع إلى كتاب الله عز وجل، أو إلى حكمه، أو إلى علم، أو إلى موعظة، وهو لا يحدث نفسه بشيء، غير ما يستمع إليه، وقد أشهد قلبه ما يستمع إليه، يريد الله تعالى بذلك، كان له فيه ذكرى، لأن الله تبارك اسمه قال ذلك[1].

وهو كما قال، وبذلك وصف المؤمنين وأمرهم به، فقال عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾[2].

وروي عن وهب بن منبه[3]، أنه قال: من أدب

---

(١) هذا إشارة إلى قوله تعالى: **﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد﴾** [سورة ق، الآية (٣٦)].

(٢) سورة الزمر، الآية (١٨).

(٣) وهب بن منبه: قال الذهبي: ولد سنة أربع وثلاثين، وتوفي سنة أربع عشرة ومائة، كان كثير النقل من كتب الإسرائيليات، قال أحمد بن حنبل: كان يتهم بشيء من القدر ثم رجع.

الاستماع: سكون الجوارح، وغض البصر، والإصغاء بالسمع، وحضور العقل، والعزم على العمل.

وذلك هو الاستماع، كما يحب الله تعالى، وهو:

أن يكف العبد جوارحه أن يشغلها بشيء، فيشتغل قلبه به عما يسمع.

ويغض طرفه، لئلا يلهو قلبُه بما يرى.

ويحضر عقله، فلا يحدث نفسه بشيء سوى ما يستمع إليه.

ويعزم أن يفهم، فيعمل بما يفهم[١].

أصلح نفسك

قال أبو عبد الله:

اشتغل بإصلاح نفسك عن عيب غيرك، فإنه كان يقال: كفى بالمرء عيباً أن يستبين له من الناس ما يخفى عليه من نفسه، أو يمقت الناس فيما يأتي مثله، أو

(١) الرعاية لحقوق الله ص(٢٨ ـ ٣٠) بتصرف، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت.

يؤذي جليسه، أو يقول في الناس ما لا يعنيه[١].

البحث عن النجاة

قال أبو عبد الله:

انتهى البيان إلى أن هذه الأمة تفترق على بضع وسبعين فرقة، منها فرقة ناجية، والله أعلم بسائرها.

فلم أزل برهة من عمري أنظر اختلاف الأمة، وألتمس المنهاج الواضح، والسبيل القاصد، وأطلب من العلم والعمل، وأستدل على طريق الآخرة بإرشاد العلماء، وعقلتُ كثيراً من كلام الله عز وجل بتأويل الفقهاء.

وتدبرت أحوال الأمة، ونظرت في مذاهبها وأقاويلها، فعلقت من ذلك ما قدر لي، ورأيت اختلافهم بحراً عميقاً، غرق فيه ناس كثير، وسلم منه عصابة قليلة.

ورأيت كل صنف منهم يزعم أن النجاة لمن تبعهم، وأن المهالك لمن خالفهم.

(١) رسالة المسترشدين ص(٥٠).

ثم رأيت الناس أصنافاً:

فمنهم العالم بأمر الآخرة، لقاؤه عسير، ووجوده عزيز.

ومنهم الجاهل، فالبعد منه غنيمة.

ومنهم المتشبه بالعلماء، مشغوف بدنياه، مؤثر لها.

ومنهم: حامل علم منسوب إلى الدين، ملتمس بعلمه التعظيم والعلو، ينال بالدين من عرض الدنيا.

ومنهم: حامل علم لا يعلم تأويل ما حمل.

ومنهم: متشبه بالنساك، متحرٍ للخير، لا غناء عنده ولا نفاذ لعلمه، ولا يعتمد على رأيه[1].

ومنهم: منسوب إلى العقل والدهاء، مفقود الورع والتقى.

ومنهم: متوادون، على الهوى واقفون، وللدنيا يذلون، ورياستها يطلبون.

---

(١) هذا الصنف من الناس، يتعبدون على غير أساس من علم، فينحرفون بذلك عن طريق الهدى.

ومنهم: شياطين الإنس، عن الآخرة يصدون، وعلى الدنيا يتكالبون، وإلى جمعها يهرعون، وفي الاستكثار منها يرغبون، فهم في الدنيا أحياء، وفي العرف موتى.

فتفقدت في الأصناف نفسي، وضقت بذلك ذرعاً.

فقصدت إلى هدى المهتدين بطلب السداد والهدى، واسترشدت العلم، وأعملت الفكر، وأطلت النظر: فتبين لي من كتاب الله وسنة نبيه، وإجماع الأمة: أن اتباع الهوى يعمي عن الرشد، ويضل عن الحق، ويطيل المكث في العمى.

فبدأت بإسقاط الهوى عن قلبي،

ووقفت عند اختلاف الأمة، مرتاداً لطلب الفرقة الناجية، حذاراً من الأهواء المردية، والفرقة الهالكة، متحرزاً من الاقتحام قبل البيان، ألتمس سبيل النجاة لمهجة نفسي.

ثم وجدت - باجتماع الأمة - في كتاب الله المنزل، أن سبيل النجاة:

في التمسك بتقوى الله، وأداء فرائضه.

والورع في حلاله وحرامه، وجميع حدوده.

والإخلاص لله تعالى بطاعته.

والتأسي برسوله ﷺ.

فطلبت معرفة الفرائض والسنن عند العلماء في الآثار، فرأيت اجتماعاً واختلافاً. ووجدت جميعهم مجتمعين على أن علم الفرائض والسنن عند العلماء بالله وأمره، الفقهاء عن الله، العاملين برضوانه، الورعين عن محارمه، المتأسين برسوله عليه الصلاة والسلام، المؤثرين الآخرة على الدنيا. أولئك المتمسكون بأمر الله وسنن المرسلين.

فالتمست من بين الأمة هذا الصنف المجتمع عليهم، والموصوفين بآثارهم، واقتبست من علمهم، فرأيتهم أقل من القليل، ورأيت علمهم مندرساً، كما قال رسول الله ﷺ: (بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء)[1] وهم المتفردون بدينهم.

فعظمت مصيبتي لفقد الأولياء الأتقياء، وخشيت بغتة الموت أن يفجأني على اضطراب من عمري،

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٤٥).

لاختلاف الأمة، فانكمشت في طلب عالم لم أجد لي من معرفته بداً، ولم أقصر في الاحتياط، ولا في النصح، فقيض لي الرؤوف بعباده قوماً، وجدت فيهم دلائل التقوى، وأعلام الورع، وإيثار الآخرة على الدنيا.

ووجدت إرشادهم ووصاياهم موافقة لأفاعيل أئمة الهدى.

ووجدتهم مجتمعين على نصح الأمة، لا يرجّون أحداً في معصيته، ولا يقنّطون أحداً من رحمته.

يرضون أبداً بالصبر على البأساء والضراء، والرضى بالقضاء، والشكر على النعماء.

يحببون الله تعالى إلى العبد بذكرهم أياديه وإحسانه، ويحثون العباد على الإنابة إلى الله تعالى.

علماء بعظمة الله تعالى.

علماء بعظيم قدرته.

علماء بكتابه وسنته.

فقهاء في دينه، علماء بما يحب ويكره.

ورعين عن البدع والأهواء، تاركين للتعمق

والإغلاء، مبغضين للجدال والمراء، متورعين عن الاغتياب والظلم.

مخالفين لأهوائهم، محاسبين لأنفسهم، مالكين لجوارحهم، ورعين في مطاعمهم وملابسهم وجميع أحوالهم.

مجانبين للشبهات، تاركين للشهوات، مجتزئين بالبلغة من الأقوات، متقللين من المباح، زاهدين في الحلال.

مشفقين من الحساب، وجلين من المعاد.

مزرين على أنفسهم من دون غيرهم، لكل امرئ منهم شأن يغنيه.

علماء بأمر الآخرة وأقاويل القيامة، وجزيل الثواب، وأليم العقاب، وذلك أورثهم الحزن الدائم، والهم المقيم، فشغلوا عن سرور الدنيا ونعيمها[1].

فتبين لي فضلهم، واتضح لي نصحهم، وأيقنت

(١) لعل المحاسبي ـ رحمه الله ـ أراد ببيان هذه الصفات التنبيه إلى أوصاف العلماء الذين يجدر بالمسلم أن يلازمهم ويقتبس من علمهم وأدبهم وفضلهم.

أنهم العاملون بطريق الآخرة، والمتأسون بالمرسلين، والمصابيح لمن استضاء بهم، والهادون لمن استرشد، فأصبحت راغباً في مذهبهم، مقتبساً من فوائدهم، قابلاً لآدابهم، محباً لطاعتهم، لا أعدل بهم سبباً، ولا أوثر عليهم أحداً[1][2].

صفات المربين

قال أبو عبد الله:

اطلب آثار من زاده العلم خشية، والعملُ بصيرة، والعقلُ معرفة.

(١) الوصايا، للحارث المحاسبي ص(٢٧ ـ ٣١)، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده عام ١٩٦٥م.

(٢) قد يقول القارئ الكريم: هذه تجربة المحاسبي يصف لنا تفاصيلها ودقائقها، فأين الموعظة فيها؟
والواقع أن الموعظة إنما هي خلاصة تجربة. وتجربة المحاسبي هذه فيها من المواعظ الشي الكثير، ولست بصدد تعداد ذلك. فهي بينة واضحة.
ولكن المحاسبي على جلالة قدره وسعة علمه، لم يسعه أن يعيش منفرداً، بل وجد أن الذئب لا يأكل من الغنم إلا القاصية، فالجماعة الصالحة تعين الفرد على استقامة سلوكه، وتصحح له اعوجاجه، فكان لا بد من البحث عنها كما فعل المحاسبي، فهو ساعٍ إليهم ليستفيد من نصحهم وإرشادهم.

فإن حجبك عن منهاجهم فَقْدُ الأدب، فارجع بالذم على نفسك. ولن يخفى على أهل العلم صفة المخلصين.

واعلم أن في كل فكرة أدباً، وفي كل إشارة علماً.

وإنما يميز ذلك من فهم عن الله عز وجل مراده، وجنى فوائد اليقين من خطابه.

وعلامة ذلك ـ في الصادق ـ إذا نظر اعتبر.

وإذا صمت تفكر، وإذا تكلم ذكر.

وإذا منع صبر، وإذا أُعطي شكر.

وإذا ابتلي استرجع، وإذا جهلَ عليه حَلُم.

وإذا عِلِم تواضع، وإذا علَّمَ رفق.

وإذا سئل بذل.

شفاء للقاصد، وعون للمسترشد.

حليف صدق، وكهف بِر.

قريب الرضا في حق نفسه، بعيد الهمة في حق الله تعالى.

نيته أفضل من عمله، وعمله أبلغ من قوله.

مواطنه الحق، ومعقله الحياء، ومعلومه الورع، وشاهده الثقة.

له بصائر من النور يبصر بها، وحقائق من العلم ينطق منها، ودلائل من اليقين يعبر عنها.

وإنما يواصَلُ بذلك من جاهد لله تعالى نفسه، واستقامت لطاعته نيته، وخشي الله في سره وعلانيته، وقصر الأمل، وشمر مئزر الحذر، وأقلع بريح النجاة في بحر الابتهال.

فأوقاته غنيمة، وأحواله سليمة، لم يغتر بزخرف دار الغرور، ولم يَلْهُ ببريق سراب نسيمها عن أهوال يوم النشور.

شعاره الثقة، وحاله المراقبة، ألا ترى لقول رسول الله ﷺ: (اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[1].

يحسبه الجاهل صمِّيتاً عييا، وحكمته أصمتته.

---

(١) متفق عليه بلفظ: (أن تعبد الله كأنك تراه..) [البخاري ٥٠، مسلم ٩].

ويحسبه الأحمق مهذاراً، والنصيحة - لله - أنطقته.

ويحسبه غنياً، والتعفف أغناه.

ويحسبه فقيراً، والتواضع أدناه.

لا يتعرض لما لا يعنيه، ولا يتكلف فوق ما يكفيه.

ولا يأخذ ما ليس بمحتاج إليه، ولا يدع ما وُكّلَ بحفظه.

الناس منه في راحة، وهو من نفسه في تعب.

قد أمات بالورع حرصه، وحسم بالتقى طمعه، وأفنى بنور العلم شهواته.

فهكذا فكن.

ولمثل هؤلاء، فاصحب، ولآثارهم فاتبع، وبأخلاقهم فتأدب، فهؤلاء الكنز المأمون، بائعهم بالدنيا مغبون.

وهم العدة في البلاء، والثقات من الأخلاء.

إن افتقرت أغنوك، وإن دعوا الرب لم ينسوك: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1][2].

---

(١) سورة المجادلة، الآية (٢٢).

(٢) رسالة المسترشدين ص(١٠١).

أيامك قليلة

قال أبو عبد الله:

اعلم أن أيامك قليلة، ونفسك واحدة، فإن فنيت أيامك فلا رجعة لك فيها، ولا عوض لك عنها، وإن عطبت نفسك فلا نفس لك سواها.

وهل تدري - يا أخي - ما إصلاح ما بينك وبين الله؟

ألا يأتيه منك شيء إلا كان له فيه رضى.

وألا يأتيك منه شيء إلا كان لك به رضى.

فتعاهد يا أخي أيامك، في ليلك ونهارك، وجميع أحوالك، ما أنت فيه، وما أنت عليه[1].

إصلاح النية

قال أبو عبد الله:

اعلم - رحمك الله - أن أساس التقوى، وأصلَ ما بنى عليه العابدون، والذين صدقوا الله عز وجل، النية في جميع ما أرادوا به الله تعالى: من ترك معصية، أو عمل طاعة.

---

(١) آداب النفوس، ص(١٨٧).

فعليك بإصلاح نيتك، فإن بها صلاح آخرتك ودنياك جميعاً، وهو نجاة لك عند المهالك كلها، لا غنى بك عنه، ولا تصل إلى شيء من الأشياء إلا به، وهو حبل الله المتين.

فاقصد ـ أول ما تقصد ـ إلى نيتك، فإنما العزم بالنية، ولا يفتح لك باب، ولا يصل إليك روح، ولا شيء من معرفة الرب تبارك وتعالى إلا به، فعليك بنيتك، فإنه عمل خفي فيما بينك وبين الله تعالى، وبه يسكن الإخلاص والصدق في القول والفعل إلى القلب.

فلا تعملن شيئاً، ولا تأكل ولا تشرب ولا تتكلم ولا تنظر، ولا يراك الله تعمل شيئاً إلا بنية.

واعلم ـ رحمك الله ـ أنه إذا كانت النية صحيحة جيدة، كان معك الجند الذي لا يهزم، والحارس الذي لا يغفل.

وهي رأس مال لا ينفد، وهي رأس مالك، وكسبك، وخاتمة الكيس[١].

---

(١) الكيس: ضد الحمق. وفي الحديث الشريف: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت».

فاللَّهَ اللَّهَ، عليك بصلاح نيتك، فإنك بها تدرك الإخلاص، فإن عامة الخلق قد اجتهدوا في أنواع العبادات بلا نية.

وهي موضع مسكن الهيبة والتعظيم، والخوف والحذر، والوجل والحياء من الله عز وجل.

فاقصد قصد النية: أن تنقيها من جميع الآفات، وتعملها باباً[١].

منَّ الله تعالى علينا وعليك بمعرفة النية وصلاحها من جميع العيوب، ولو كان عيباً واحداً لأهلك الإنسان[٢].

الصبر

قال أبو عبد الله:

اعلم أن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس ذهب الجسد، وإذا سمعت كلمة تغضبك في عرضك فاعف واصفح، فإن ذلك من عزم الأمور[٣].

---

(١) أي تعملها باباً تدخل منه إلى الأعمال.

(٢) شرح المعرفة ص(٦٧)، للحارث المحاسبي، تحقيق صالح أحمد الشامي، دار القلم بدمشق.

(٣) رسالة المسترشدين ص(٥٠).

دلائل التقوى

قال أبو عبد الله:

إني وجدت النصحاء - رحمة الله عليهم ورضوانه - متفقين على أن سعادة العبد في الدنيا والآخرة، التمسك بتقوى الله.

ألا وإن دلائل التقوى، هي: الورع عن محارم الله، والقيام بحدوده، وتصفية القلوب من مكارهه.

ووجدتهم متفقين على أن فساد الدين، في الجراءة على الله تعالى.

ألا وإن دلالة الجراءة على الله عز وجل؛ ترك الورع، والتعدي لحدود الله تعالى، والإصرار على معصيته.

عصمنا الله وإياكم من ذلك[1].

تحذير من الموقف

قال أبو عبد الله:

(١) الوصايا ص(٣٢).

يا أخي، إني أحذرك - ونفسي - مقاماً، عنت فيه الوجوه، وخشعت فيه الأصوات، وذلَّ فيه الجبارون، وتضعضع فيه المتكبرون، واستسلم فيه الأولون والآخرون بالذل والمسكنة والخضوع لرب العالمين. وقد جمعهم الواحد القهار، الذي لا ثاني له في الهيبة، ولا مشارك له في حكمه.

جمعهم بعد طول البلى للفصل والقضاء، في يوم آلى فيه على نفسه: أن لا يترك فيه عبداً - أمرَه في الدنيا ونهاه - حتى يسائله عن عمله، في سره وعلانيته.

فانظر بأي بدن تقف بين يديه، وأعدَّ للسؤال جواباً، وللجواب صواباً، فإنه لا يصدِّق إلا الصادقين، ولا يكذب إلا الكاذبين[1].

آداب

قال أبو عبد الله:

الزم الأدب، وفارق الهوى والغضب، واعمل في أسباب التيقظ، واتخذ الرفق حزباً، والتأني صاحباً، والسلامة كهفاً، والفراغ غنيمة، والدنيا مطية، والآخرة منزلاً[2].

(١) الرعاية لحقوق الله ص(٣٦).

(٢) رسالة المسترشدين ص(٧٩).

معرفة العيوب

قال أبو عبد الله:

عليك بمعرفة العيوب، باباً باباً، وجارحة جارحة، من عيوب الطاعات والمعاصي كلها، فإنه باب عظيم، به تصل إلى التقوى إن شاء الله تعالى[١].

الاقتصاد

قال أبو عبد الله:

أوصيكم بالاقتصاد فيما رزقتم، فإنه من صلاح الدين.

وأحذركم الإسراف في وقت الغنى، فإن الله يكره السرف في كل شيء، وقد ذم الله تعالى المسرفين، ومدح الذين لم يسرفوا ولم يقتروا.

وبلغنا عن بعض التابعين أنه قال: كفى بهذا إسرافاً أن يأكل العبد ما يشتهي ويلبس ما يشتهي.

وبلغنا عن بعض أهل العلم قال: يجيء يوم القيامة قوم يطلبون صفات لهم عملوها، فيقال لهم:

---

(١) شرح المعرفة ص(٦٩).

أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها.

ألا فكونوا مقتصدين في أحوالكم من غير إقتار ولا إسراف[١].

التحذير من الغفلة

قال أبو عبد الله:

احذر مواطن الغفلة، ومخاتل العدو[٢]، وطربات الهوى، وضراوة الشهوة وأماني النفس[٣].

النصيحة

قال أبو عبد الله:

ابذل النصيحة لله وللمؤمنين، وشاور في أمرك الذين يخشون الله، واعلم أن من نصحك فقد أحبك، ومن داهنك فقد غشك، ومن لم يقبل نصيحتك فليس بأخ لك[٤].

---

(١) الوصايا ص(٦٣).

(٢) أي مخادعته.

(٣) رسالة المسترشدين ص(٨١).

(٤) رسالة المسترشدين ص(٧٠).

الصدق

قال أبو عبد الله:

آثر الصدق في كل موطن تغنم، واعتزل الفضول تسلم.

فإن الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى رضا الله تعالى، والكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يورث سخط الله[1].

إحراز ما يمكن من الخير

قال أبو عبد الله:

إني تدبرت أحوالنا في دهرنا هذا، فأطلت فيه التفكر، فرأيت زماناً مستصعباً، قد تبدلت فيه شرائع الإيمان، وانتقضت فيه عرى الإسلام، وتغيرت فيه معالم الدين، واندرست الحدود، وذهب الحق وباد أهله، وعلا الباطل وكثر أتباعه.

ورأيت فتناً متراكمة، يحار فيها اللبيب، ورأيت هوى غالباً، وعدواً مستكلباً، وأنفساً والهة، عن التفكير

(١) رسالة المسترشدين ص(٧٢).

محجوبة، قد جللها الرياء، فعميت عن الآخرة.

فالضمائر والأحوال في دهرنا بخلاف أحوال السلف.

فلما رأيت البلاء محدقاً، والفتن بنا محيطة، أشفقت من ذلك. ونظرت ـ على الضرورة ـ إلى أمر، هو بين أمرين: إذا لم نكن ممن يقوم بكل ما أمر الله به، فلا ينبغي لنا أن نضيع كل ما أمر الله به، فنهلك هلاك الأبد.

ألا، فراقبوا الله عز وجل.

ولا تخرجوا أنفسكم من الخير كله، ولا تقتحموا ـ بمجهودكم ـ في الشر كله.

ولا تميلوا بأهوائكم عن الحق كله، ولا تستهينوا بأمر الله كله.

وتمسكوا بالقليل من كثير يجب عليكم، وإن كان لا عذر لأحد في تضييع شيء من أمر الله، ولكن سداد من عوز[1]، وبعض الشر أهون من بعض، والقليل يتمسك به، خير من ذهاب الجميع.

(١) أي كفاية من فقر وقلة.

فإنه بلغنا أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: (سيأتي بعدكم قوم إن تمسكوا بعشر ما أنتم عليه نجوا[1])[2].

الصمت

قال أبو عبد الله:

اعلم أن الطريق إلى الحكمة الصمت، فإنك إذا صمتّ ملكت قلبك، وليكن صمتك تفكرا، ونظرك عبرة، وكلامك ذكرا.

ولا تختر على الصمت شيئاً، إلا أن يكون لزمك فرض من فرائض الله تعالى[3].

العمل المثمر

قال أبو عبد الله:

(١) أخرج الترمذي من حديث أبي هريرة مرفوعاً: (إنكم في زمان من ترك منكم عُشرَ ما أمر به هلك، ثم يأتي زمان من عمل منكم بعشر ما أمر به نجا) رقمه (٢٢٦٧) وضعفه الألباني.

(٢) الوصايا ص(٣٣).

(٣) شرح المعرفة ص(٥٦).

اعمل عمل رجل يعلم أنه مجازى بالإحسان، مأخوذ بالإجرام.

وأدم شكرك

واقصر من أملك، وزر القبور بهمك، وجُلْ في الحشر بقلبك.

ثم رُمَّ جهازك[1]، وافرُغْ من زادك[2].

وكن وصي نفسك، ولا تجعل الرجال أوصياءك[3].

واعقل أمرك، وتيقظ من سنتك، فإنك مسؤول عن عمرك.

واعلم أن من جعل همه الآخرة، كفاه الله أمر دنياه[4].

أصول وضوابط

قال أبو عبد الله:

(١) أي أصلح ما تحتاج إليه.

(٢) أي أنجز إعداده.

(٣) أي أنفذ ما أردت من فعل الخير، ولا تترك ذلك حتى توصي به من بعدك.

(٤) رسالة المسترشدين ص(٧٢ ـ ٧٦) باختصار.

اعلم ـ رحمك الله ـ أن الصدق والإخلاص أصل كل حال:

فمن الصدق يتشعب: الصبر، والقناعة، والزهد، والرضا، والأنس.

وعن الإخلاص يتشعب: اليقين، والخوف، والمحبة، والإجلال، والحياء، والتعظيم.

ولكل أصل من هذه الأحوال ثلاث علامات يعرف بها:

فالصدق في ثلاثة أشياء لا تتم إلا به:

- صدق القلب بالإيمان تحقيقاً.
- وصدق النية في الأعمال.
- وصدق اللفظ في الكلام.

والصبر في ثلاثة أشياء لا تتم إلا به:

- الصبر عن محارم الله.
- والصبر على اتباع أمر الله.
- والصبر عند المصائب احتساباً لله.

والقناعة في ثلاثة أشياء:

- **قلة الغذاء** بعد وجوده.

- وصيانة الفقر عند العدم وقلة الأسباب.
- والسكون إلى أوقات الله عز وجل(١) مع حلول الفاقة.

والأنس في ثلاثة أشياء:

- أنس بالعلم والذكر في الخلوة.
- وأنس باليقين والمعرفة مع الخلوة.
- وأنس بالله عز وجل في كل حال.

والرضا: نظام المحبة، ونفس التوكل، وروح اليقين.

فهذه شعب الصدق المأخوذة بأوصاف العلم.

وأما شعب الإخلاص: فلا يسمى المخلص مخلصاً حتى يفرد الله عز وجل من الأشباه والأنداد، والصاحبة والأولاد. ثم إرادته الله بإقامة التوحيد، وجمع الهم له وبه في النفل والفرض.

وصحة اليقين في ثلاثة أشياء:

- سكون القلب إلى الثقة بالله.

---

(١) لعل المراد: ما قضى الله به في كل وقت. فكل شيء عنده بمقدار.

ـ والانقياد لأمر الله.

ـ والإشفاق والوجل من سابق العلم.

ولا يكون الخوف إلا بعد اليقين، وهل رأيت خائفاً لما لم يستيقنه؟

والخوف في ثلاثة أشياء:

ـ خوف الإيمان: وعلامته مفارقة المعاصي والذنوب، وهو خوف المريدين.

ـ وخوف السلف: وعلامته الخشية والإشفاق والورع، وهو خوف العلماء.

ـ وخوف الفوت: وعلامته بذل الجهد في طلب مرضاة الله، بوجود الهيبة والإجلال لله عز وجل، وهو خوف الصديقين.

ـ ومقام رابع في الخوف: خص الله به الملائكة والأنبياء عليهم السلام، وهو خوف الإعظام، لأنهم آمنون في أنفسهم بأمان الله لهم، فخوفهم تعبدهم لله إجلالاً وإعظاماً.

والمحبة في ثلاثة أشياء، لا يسمى محباً لله عز وجل إلا بها:

ـ محبة المؤمنين في الله عز وجل، وعلامة ذلك: كف الأذى عنهم، وجلب المنفعة إليهم.

ـ ومحبة الرسول ﷺ لله عز وجل، وعلامة ذلك: اتباع سنته، قال الله جل ذكره: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[١].

ـ ومحبة الله عز وجل في إيثار الطاعة على المعصية.

والإجلال والتعظيم من الحياء بمنزلة الرأس من الجسد الذي لا غنى لأحدهما عن صاحبه، وإذا استحيا العبد من ربه أجلَّه، وأفضل الحياء: المراقبة لله عز وجل.

والمراقبة في ثلاثة أشياء:

ـ مراقبة الله في طاعته بالعمل.

ـ ومراقبة الله في معصيته بالترك.

ـ ومراقبة الله في الهمِّ والخواطر، لقول النبي ﷺ: (اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكف تراه فإنه يراك)[٢].

---

(١) سورة آل عمران، الآية (٣١).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٨).

ومراقبة القلب لله عز وجل، أشد تعباً على البدن من مكابدة قيام الليل، وصيام النهار، وإنفاق المال في سبيل الله[1].

مفقودات

قال أبو عبد الله:

فقدنا ثلاثة أشياء:

حسن الوجه مع الصيانة[2].

وحسن القول مع الأمانة.

وحسن الإخاء مع الوفاء[3].

اختيار الأصحاب

قال أبو عبد الله:

اطلب الجار ثم الدار، والرفيق ثم السفر.

واحذر أن تصحب الحسود، فإنه مضادّ لله تعالى في قضائه

---

(١) رسالة المسترشدين ص(١٧٠ ـ ١٨١).

(٢) الصيانة: العفاف والسلامة من الإعجاب والكبر.

(٣) الرسالة القشيرية ص(٢٤٢)، تحقيق معروف زريق، دار الجيل، بيروت.

ولا تصحب من يغتاب، أو يبهت، أو يكذب، أو ينم، أو ذا وجهين، أو ذا لسانين، أو ذا قلبين. فاتقِ هؤلاء كلهم، فإنهم شين في الدنيا وعذاب في الآخرة.

ولا تصحب إلا مؤمناً صادقاً.

والحذر الحذر من أهل زمانك، ومن نفسك خاصة، فإنها عدو خفي.

واحذر إبليس وأعوانه، وكن مستيقظاً ـ دهرك ـ في أمورك كلها[1].

تطهير الكسب

قال أبو عبد الله:

تحرزوا في مكاسبكم من فنون الربا، فإنه بضع وسبعون باباً.

واتقوا الخيانة، والنجش والتطفيف، والكذب، والحلف، والمدح والذم عند المبايعة وأشباه ذلك.

فتورعوا فيها واحتاطوا لأنفسكم، فإن دلالة التقوى في الورع، وبالورع يعرف المتقون.

---

(١) شرح المعرفة ص(٨٨).

وقد بلغنا عنه ﷺ أنه قال: (من غش مسلماً فليس منا[1])[2].

نوافل أم مكملات؟

قال أبو عبد الله:

إخواني: إذا تطوع الناس بالصوم والصلاة طلباً للثواب، ألا فقدموا النية في استكثار التطوع لإكمال الصلاة المفروضة، فإن فيها خللاً كثيراً، فإن أمنية العاقل من جميع أعمال بره ونوافله أن يكمل بها فرائضه.

فإنه بلغنا أن بعض الصحابة قال: أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة المكتوبة، فإن أتمها وإلا قيل للحفظة: انظروا هل له من تطوع، فإن كان له تطوع أكملت الفرائض من تطوعه، فإن لم تكمل الفريضة، ولم يكن له تطوع أخذ بطرفيه وألقي في النار، أعاذنا الله وإياكم من ذلك[3].

(١) أخرجه مسلم بلفظ: «من غش فليس مني» (١٠٢).
(٢) الوصايا ص(٦٢).
(٣) أخرج أبو داود والدارمي وابن ماجه عن تميم الداري قال: قال رسول الله ﷺ: (إن أول ما يحاسب به العبد الصلاة، =

فأيقنتُ أني مطلوب بفرائض لم تتم، ولا قاربت التمام.

ووجدت من النقص في التطوع أضعاف نقص الفرائض.

وضقت لذلك ذرعاً، وخشيت ألا تكمل فريضة اتحدت بنوافل أضيع منها، وكيف يُصلح ثوب قديم البلى بالخرق البالية؟

فأيقنت من عملي خلاف التمام، وأشفقت أن أتردى مع المتردين فيها.

فأصبحت مضطراً إلى الفرائض بكمالها، فقيراً إلى التطوع لإتمام ما انتقص من حدودها، شديد الحاجة إلى اكتساب البر لتكفير مساوئها.

فأنا في شغل عن طلب النوافل، وقد ضيعت كثيراً من حدود الفرائض.

فتدبروا أمركم:

فإن وجد صلاته كاملة كتبت له كاملة، وإن كان فيها نقصان قال الله تعالى للملائكة: انظروا هل لعبدي من تطوع، فأكملوا له ما نقص من فريضته، ثم الزكاة، ثم الأعمال على حسب ذلك).

فإن يكن الذي حل بي من التفريط حل بكم بعضه. فاستكثروا من النوافل لإكمال الفرائض.

فإنه بلغنا أن الله جل ثناؤه لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة[1].

إخواني: فلتكن إرادتكم في استكثار النوافل لإكمال الفرائض، فإن ذلك أفضل النيات، وأكرم الهمم، وأوفقها لمحبة الله عزَّ وجلَّ[2].

التزام طريق الصحابة

قال أبو عبد الله:

أعون الأمور لك على التقوى لزوم طريق أصحاب النبي ﷺ.

---

(١) هذه الكلمة لأبي بكر رضي الله عنه، عندما حضرته الوفاة، أوصى بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفيها: «اتق الله يا عمر، واعلم أن لله عز وجل عملاً بالنهار لا يقبله بالليل، وعملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وأنه لا يقبل نافلة حتى تُؤدى الفريضة..». انظر: تهذيب حلية الأولياء، بقلم صالح أحمد الشامي، المكتب الإسلامي (١/ ٦٠).

(٢) الوصايا ص(١٠٠).

وإياك والمحدثات من الأمور، والرغبة عن طريقهم، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، والضلالة وأهلها في النار.

أعاذنا الله تعالى وإياك من النار.

واعلم أنك إذا أخذت طريق أصحاب النبي ﷺ فقد أخذت بغاية الصدق، وأفلحت حجتك، ونلت بغيتك.

فلا تخالفهم في شيء من الأشياء، فإنهم كانوا على الحق المبين، والنور الواضح، فاتبع سبيلهم ومنهاجهم، ولا تعرج عنهم، فيعرج بك، ولا تخالفهم فيخالف بك[1].

التزين بالعلم

قال أبو عبد الله:

احذر التزين بالعلم، كما تحذر العجب بالعمل.

ولا تعقدنَّ باطناً من الأدب، ينقضه عليك ظاهر من العلم[2].

---

(١) شرح المعرفة ص(٦٩).

(٢) رسالة المسترشدين ص(١٣٣).

قيد العلم

قال أبو عبد الله:

قيد الجوارح بأحكام العلم.

وراع هَمَّك بمعرفة قرب الله منك، وقم بين يديه مقام العبد المستجير تجده رؤوفاً رحيماً[1].

طريق السلف

قال أبو عبد الله:

اعلم ـ يا أخي ـ أن الله جل ذكره، قد افترض فرائض ظاهرة وباطنة، وشرع لك شرائع، دلَّك عليها، وأمرك بها، ووعدك على حسن أدائها جزيل الثواب، وأوعدك على تضييعها أليم العقاب، رحمة لك، وحذرك نفسه شفقة منه عليك.

فقم ـ يا أخي ـ بفرائضه، والزم شرائعه، ووافق سنة نبيه ﷺ.

واتبع آثار أصحاب نبيه، والزم سيرتهم، وتأدب بآدابهم، واسلك طريقهم، واهتد بهداهم، وتوسل إلى الله بحبهم، وحبَّ من أحبهم.

(١) رسالة المسترشدين ص(٨٦).

فهم الذين أنابوا إليه، وقصدوا قصده، واختارهم لصحبة نبيه، فجعلهم له أحباباً وأخداناً.

واعلم ـ يا أخي ـ أن علامة حبك إياهم: لزومك محجتهم[1]، مع استقامة قلبك، وصحة عملك، وصدق لسانك، وحسن سريرتك لأمر دنياك وآخرتك، كما كان القوم في هذه الأحوال.

فهذا يحقق منك صدق دعواك لحبهم، والتمسك بسنتهم.

وإن كنت مدعياً لحبهم، وأنت مخالف لأفاعيلهم، فأنت مائل إلى موافقه هواك، عادل عن مسيرتهم، ولست بصادق في دعواك.

فلا تجمعن على نفسك:

ـ الخلاف لمحجتهم.

ـ والدعوى أنك على سبيلهم.

فمتى فعلت ذلك: صح منك جهل وكذب، وتعرضت للمقت من اللطيف الخبير[2].

(١) المحجة: الطريقة والسنة.

(٢) آداب النفوس ص(٢٨)، للحارث المحاسبي، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الجيل، بيروت، ط٢.

التدبر عند تلاوة القرآن

قال أبو عبد الله:

إخواني: إذا تلا الناس كتاب الله لفضل ثوابه، ألا فأريدوا بتلاوتكم:

التدبر والاعتبار بأمثاله وعجائبه.

ووعده ووعيده.

وأمره ونهيه.

وحلاله وحرامه.

والعمل بحدوده وفرائضه.

فإن ذلك أبلغ في رضوان الله تعالى.

يا قوم: إنكم ما عملتم بحدود القرآن، وصلتم إلى أجزل الثواب، وأعلى المنازل عند الله تعالى.

وإن ضيعتم حدود القرآن، وتلوتموه للثواب، خشيت أن يفوتكم الثواب بحدوده، فكم تالٍ له يتبرأ القرآن منه غداً، ويهوي مع الهاوين بعد تلاوة القرآن، أعاذنا الله وإياكم من ذلك.

فهذا فضل ما بين الرجلين:

أحدهما: يتلو كتاب الله لفضل ثوابه، وعساه مضيعاً لكثير من حدوده، فهو كمن لم يتل شيئاً.

والآخر: يعمل بحدود القرآن ـ وإن كان أعجمياً ـ فهو تال لكتاب الله أجمع.

جعلنا الله وإياكم من العاملين بحدوده[١].

دعاء المضطر

قال أبو عبد الله:

إذا دعا الناس ربهم بالألسن، وبسطوا الأيدي، وقلوبهم عنه ساهية، ألا فأحضروا القلوب مع الألسن، فإنه أبلغ.

فراقبوا الله، ولا تحزنوا، ولا تحرموا أنفسكم إجابة الدعاء بالغفلة عن الله عز وجل، إجابه المضطر إذا دعاه.

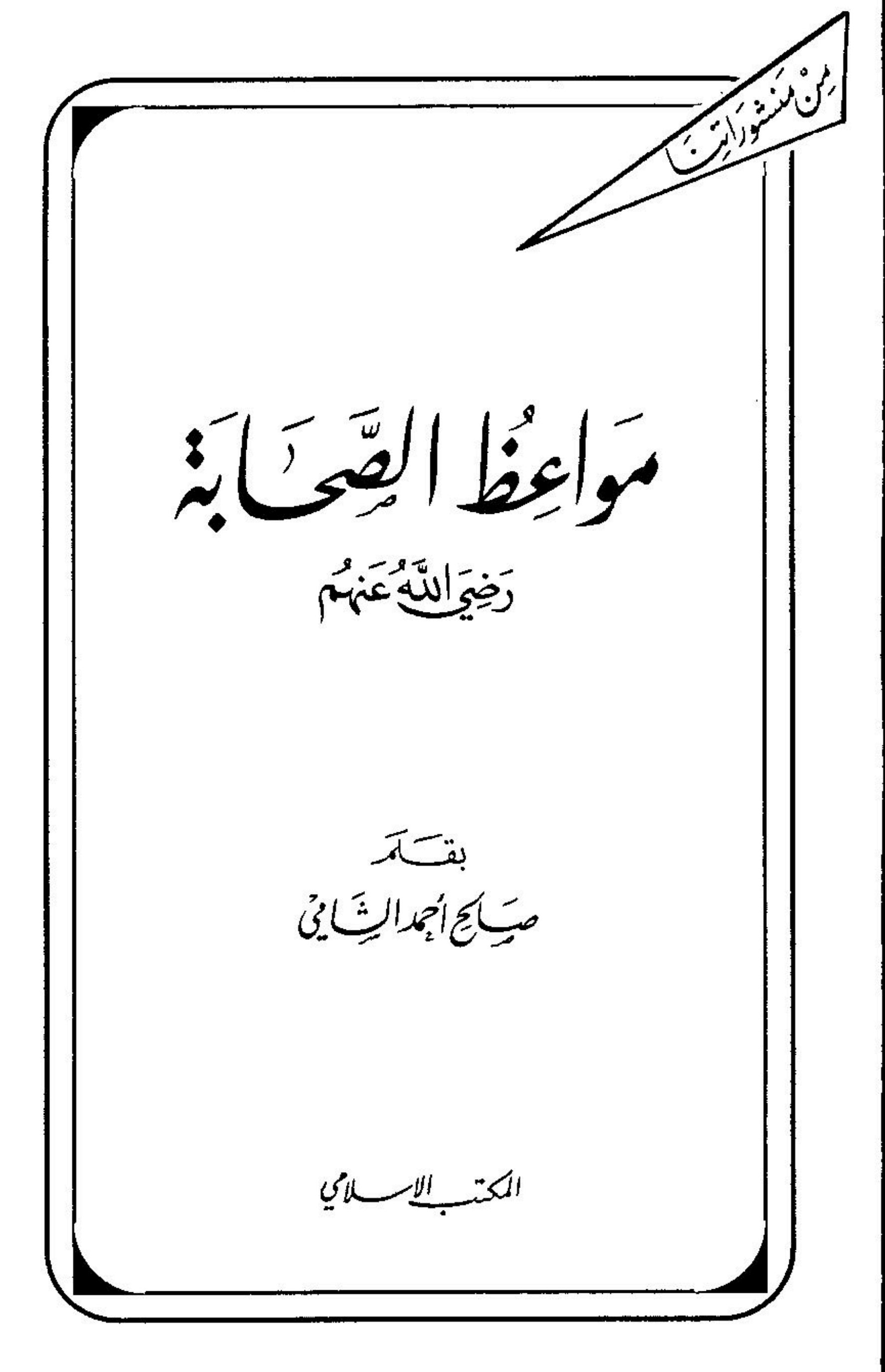
فهذا فضل ما بين الرجلين:

أحدهما: داع بلسانه، وقلبه غافل عن الله ساه.

والآخر: وجل، يتضرع بقلبه ولسانه.

---

(١) الوصايا ص(١٠٧).



من منشوراتنا
مواعظ الصحابة
رضي الله عنهم
بقلم
صالح أحمد الشامي
المكتب الإسلامي